التاويـــــل فـــي النحـــــــــــــو العربـــي
موقـــف القدامـــى والمحدثيـــــن

الاستاذ: حمروش إدريس
أستاذ مكلف بالدروس
المدرسة العليا للأساتذة- قسنطينة-

ملخص:

التاويل من القضايا التي نالت اهتمام النحاة – قديما وحديثا – وإن كان القـــدامى قـــد استخدموا التأويل كآلية في معالجة النصوص والشواهد اللغوية منذ النحاة الأوائل ثم استفحل دوره كآلية لدى النحاة في معالجة ما شذ عن قواعدهم من شواهد ونصوص أو ما استعصـــى عندهم من مسائل فرعية عملوا فيها عقولهم لكن حتى غاية القرن الثالث كانـــت تـــأويلاتهم وتطبيقاتهم وتحليلاتهم بعيدة عن التكلف والجدل, فلا يلجأ إليه إلا إذا اقتضى التوافـــق مـــع مقاييس النحو وأصوله.

La substitution en grammaire arabe
Entre anciens et modernistes

La substitution représente un des points qui a toujours intéresse les grammairiens avant et même si les anciens grammairiens ont utilisé la substitution comme un mécanisme dans le traitement des textes et les exemples. Il est certain que la substitution est apparue avec la première constitution de la grammaire ,puis son étude s'est approfondie avec les théorie des principes de la grammaire pour se confirmes avec le rôle qu'il a désormais chey les grammairiens,comme mécanisme dans le traitement de ce qui est considéré comme exceptions aux règles dans les exemples et les textes,ou encore dans le traitement de qui peut représenter une difficulté,pour eux,dans des questions secondaires aux quelles ils ont réfléchi mais jusqu'au 3siecle , leur interprétations ,applications et analyses étaient loin de toute polémique ,ce qui fait que l'on a recours a la substitution que si celle-ci est conforme aux normes de la grammaire et de ses principes

التاويل من القضايا التي نالت اهتمام النحاة – قديما وحديثا – وإن كان القدامى قد استخدموا التأويل كآلية في معالجة النصوص والشواهد اللغوية منذ النحاة الأوائل كعبد الله بن إسحاق الحضرمي في تقديم ملاحظاته للفرزدق لما قال في مدحه يزيد بن عبد الملك قوله:

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور
ع ـلى عمائمنا يلقى وارحلنـا على زواحف تزجـي مخهـا ريـر

فقال ابن إسحاق اسال " إنما هو مخها رير "[1] اي بالضم اي (مبتدا وخبر) وروي عن الاصمعي عن عمرو بن العلاء انه قال: " سمعت اعرابيا يقول:(فلان لغوب جاءتـه كتـابي فاحتقرها.

قال: فقلت له, اتقول جاءته كتابي, فقال اليس بصحيفة[2], فحمله على المعنى وقدم الكسائي البصرة مع الرشيد فجلس إلى يونس في حلقته فألقى عليه من حضر في المجلس بيت الفرزدق:

غ ـداة احلت لابن اصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والخمر

فانشده هكذا, فقيل للكسائي على اي شيء رفعت؟

فقال: أضمرت، كأنه وحلت لي الخمر, فقال يونس: ما احس والله ما وجهته, غير اني سمعت ينشده(الخمر)[3] بالنصب.

وكان عيسى وابو عمرو يقرءان(يا جبال اوبي معه والطير) بنصب(الطير) ويختلفان في التاويل, كان عيسى يقول(هو على النداء) كما تقول(يا زيد والحارث) ما لم ينونه.

وقال أبو عمرو بن العلاء(لو كان النداء لكان رفعا, ولكنها على إضمار) " وسخرنا الطير ".[4]

فالتاويل والتقدير من خلال الشواهد السالفة يتاكد انه بزغ منذ البداية الاولى لنشاة النحو وتعمق مع نظريات أصول النحو, ثم استفحل دوره كآلية لدى النحاة في معالجة ما شذ عن قواعدهم من شواهد ونصوص او ما استعصى عندهم من مسائل فرعية عملوا فيها

عقولهم لكن حتى غاية القرن الثالث كانت تاويلاتهم وتطبيقاتهم وتحليلاتهم بعيدة عن التكلف والجدل, فلا يلجأ إليه إلا إذا اقتضى التوافق مع مقاييس النحو وأصوله.

فكان سيبويه يذهب إلى أن(ما) حين تدخل على(قل) ونحوها مثل(كثر وطال) تكفها عن العمل ولا يليها حينئذ إلا الفعل مثل(قلما يكتب, طالما يقرأ).

فأما قول المرار:

صددت فاطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم

فقال فيه إنما دخلت على اسم ضرورة وهو فاعل لفعل محذوف مفسر والتقدير يدوم كما أورد سيبويه مثال على حذفه حرف الجر توسعا كقول الملتمس:

اليت حب العراق الدهر اطعمه والحب يا كله في القرية السوس

يريد(على حب العراق)[5] كما تقول(تبئت زيدا) يقول ذاك, اي, عن زيد.

لكن هذه الاحكام البعيدة عن التكلف والتصنع جاءت بعدهم طبقة من النحاة صبغوا اراءهم النحوية بصبغة جدلية وفلسفية بعيدة عن صبغته الأولى لدوافع مختلفة كحب الغلبة والخلافات المدرسية من النحاة الشراح من تلاميذ المدرستين, إذ كان هؤلاء لا يدركون مسألة يختلف فيها الأئمة من المدرستين إلا وجاءت آراؤهم مشفوعة بسيل من التأويلات والتخريجات التي لا طائل من ورائها.

كما كان للمدارس النحوية اللاحقة كالمدرسة البغدادية والاندلسية والمصرية دور واضح في استفحال ظاهرة التأويل في النحو, فكانوا يرجحون رأيا ويدحضون آخر بعد وابل من التعديلات والتبريرات كمسألة(رفع المبتدأ والخبر) ومسائل غيرها.

والمناظرات والمجالس التي كانت تعقد بين- المبرد- وتعلب-, إذ أضحت مثلا فيما دار بين انصار المدرستين من خصومات ومناقشات.

لكن تبقى الدوافع الأساسية إلى استخدام التاويل واعتماده كالية من قبل النحاة هو حرصهم الشديد على اطراد القواعد النحوية واتساقها والمحافظة على قوانين اللغة العربية ومثاليتها والبزوغ بمعالم نظرية نحوية عربية متكاملة حاولت ضبط ما شذ من نصوص وشواهد إما تأويلا وتقديرا أو ردا وطرحا, وإن كان موقف المحدثين به نوع من التحفظ

ورميهم احيانا للقدماء صراحة بتعقيد اللغة وقبوعها في قوالب معيارية جامدة وافتتن اللغويون المحدثون بتطبيق" المنهج الوصفي " في اللغة كرد فعل للمآخذ الكثيرة على المنهج المعياري.

لكن دون تعصب ومغالاة في تمجيد الماضي. نذكر بجهود النحاة الاوائل في جمعهم للمادة اللغوية التي بنوا بها المادة النحوية العربية أنهم عملوا بآليات المنهج الوصفي – الذي اعتمد حديثا -.

فقد وصلوا في جمعهم للغة إلى الاعراب البدو الذين يسكنون الاحراش والجبال وعدت ميزة يتفاخر بها البصريون قائلين(إنما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب وآكلة اليرابيع)[6] كما أنفذ الكسائي في رحلة خمس عشرة قنينة حبر سوى ما حفظ, وكان الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه[7].

فالنحاة القدامى استخدموا كما هو واضح آلية المنهج الوصفي وبعد تصنيف هذه المادة اسسوا لقواعدهم وأحكامهم, فطرحهم لما شذ وندر لعدم إيجاد تقدير وتأويل له,وذلك استجابة لواقع اللغة وتراكيبها.

وحتى لا يطلق الأمر على غير قيد وشرط, ولا يكون عرضة لتعسف النحاة واستخدام واسع للتأويل, مما قد يؤدي إلى تشتت الأحكام النحوية وجعلها قواعدا علمية تتسم بالإطراد وعدم التناقض وضعوا لذلك شروطا منها:

1- أن يكون التأويل له غرض تعليمي منهجي كقول قيس بن الخطيم:

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والراي مختلف

فقدر خبرا لـ(نحن) هو راضون لان لكل مبتدا خبرا.

وفي قوله قال(قالوا: خيرا) فتنصب(خيرا) على أنه مفعول به, ونقدر له فعلا وفاعلا.

2- أن يكون التاويل مما اقتضته شواهد اللغة ولا يكون من اختراع النحاة وصنعهم فعند قول امرئ القيس:

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

فقد سكن الباء(اشرب) للضرورة, فلم يجد المبرد من رد لهذه الرواية إلا ترجيح رواية أخرى وهي(اليوم فاشرب) ويكون تسكين الباء طبيعيا, لأنه فعل أمر, يقول له

ابن جني معنفا(اعتراض ابي العباس في هذا الوضع, إنما هو رد للرواية وحكم على السماع بالشهوة مجردة من النصفة,ونفسه ظلم لا من جعله خصمه)[8].

3- يشترط في التأويل أن يكون في أصل متفق عليه أما إذا اختلفت الاصول او حدث الرد إلى غير الأصل, فإن التأويل والتخريج يلقى الرفض ففي لغة(أكلوني البراغيث) نسبها بعض النحويين إلى طيء وهي شاذة على غير ما عليه أصحاب هذه اللغة من مجموع القبائل العربية, ولا يجوز تأويلها إلى أصول لغات أخرى تختلف عن أصول هذه اللغة, لأن أصل اللهجات الأخرى(غير أصلي) في لهجة أكلوني البراغيث, ولا تقاس عليها.

ودفعا لكل لبس لم تكن هذه القواعد النحوية هدفا لذاته من قبل النحاة بل جعلوا من هذه القواعد آلية لفهم النص اللغوي وصيانته ما قد يشوبه من لحن وفساد, أما ما أولوه من الكلام وصرفوه عن ظاهره فكان لكي يوافق قوانين النحو وأحكامه, هذه القوانين والأحكام المستنبطة من كثرة كلام العرب وشواهدهم الفصيحة.

وبعد كل هذا لقد النحاة يضربون بالقاعدة امام فصاحة النص وفهم معناه وذلك يتضح من خلال الظواهر اللغوية التالية:

1- قصور القاعدة النحوية:

بعض القواعد النحوية التي تكون قد أطردت واشتهرت بين النحاة نجدها عاجزة على وصف وضع لغوي معين, فيلجأ النحاة إلى التأويل والتقدير حتى يزيلوا التناقض بين القاعدة النحوية والنصوص الموثوق بفصاحتها, ففي قوله تعالى حكاية على لسان – عيسى(عليه السلام) – قوله(إن كنت قلته فقد علمته) ففعلا الشرط وجوابه ماضيا لفظا وزمنا ومنه قول الشاعر:

اتغضب إن اذنا قتيبة حزنا جهارا و لم تغضب لقتل ابن خازم

فالفعل(حزنا) ماضي اللفظ والمعنى لأن البيت قد قيل بعد قتل(قتيبة) ومثله جاء فعل جواب الشرط ماضي المعنى المقلب لدخول(لم) وإن كان بصيغة المضارع.

وقد استدرك ابن القيم[9] على النحويين, وبين أن ما اشتهر من كون الشرط مستقبل المعنى على الإطلاق بعد(إن) وان اضطراب النحاة في تخريج كثير من النصوص والشواهد

التي ليس فعل الشرط فيها مستقبل المعنى, وليس هناك ما يقتضي تاويله على الاستقبال وإنما ينبغي تعديل القاعدة القاصرة, لا تأويل الايات تأويلا يحرف معناها.

ويحدد نقده للقاعدة النحوية بقوله(الصواب أن يقال: جملة الشرط والجزاء تارة تكون تعليقا محضا غير متضمن جوابا لسائل هل كان كذا, ولا يتضمن لنفي قول من قال قد كان كذا, فهذا يقتضي الاستقبال, وتارة يكون مقصوده ومضمنه جواب سائل: هل وقع كذا؟ أو رد قوله قد وقع كذا, فإن علق الجواب هنا على شرط لم يلزم, أن يكون مستقبلا لا لفظا ولا معنى, بل لا يصح فيه الاستقبال بحال, كمن يقول لرجل: هل أعتقت عبدك؟ فيقول: إن كنت قد اعتقته فقد أعتقه الله, فما للاستقبال هنا معنى قط, وكذلك إذا قلته لمن قال: صحبت فلانا, فيقول: إن كنت صحبته فقد أصبت بصحبته خيرا... وكذلك إذا قال: هل قلت لفلان كذا؟ وهو يعلم أنه علم بقوله فيقول:(إن كنت قلته فقد علمته) ، فقد عرفت ان هذه المواضع كلها مواضع ماض لفظا ومعنى ليطابق السؤال الجواب, ويصح التعليق الخبري لا الوعدي.

فالتعليق الوعدي يستلزم الاستقبال, واما التعليق الخبري فلا يستلزمه, ومن هذا الباب قوله تعالى:(إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين, وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) وتقول: (إن كانت البينة شهدت بكذا وكذا فقد صدقت, وهذه دقيقة خلت عنها كتب النحاة والفضلاء)[10]

مثلها مثل هذه الصيغ والتراكيب تحفل بها النصوص الفصيحة والقران الكريم وما تحمله من تناقض ظاهر بين القواعد النحوية ومعاني النصوص اللغوية الصحيحة المفهومة من السياق اللغوي الذي ترسمه الألفاظ, مما يفسح المجال للتأويل والتقدير لجعل القاعدة تنسجم مع الواقع اللغوي وكذا جعل القاعدة توسم بالإطراد والشمول اللذين هما شرطان أساسيان في المنظومة النحوية.

2- مراعاة المعنى الصحيح:

لا يمكن إعراب الجملة دون فهم المعنى ومراعاته لأن القواعد النحوية التي هي في الأصل أساس مهم لفهم المعنى على الوجه الصحيح, لكن تقصر أحيانا في تحديد علائق ألفاظ الجملة منه ما يروى في نزهة الألباء " قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه -, فقال: من يقرئني شيئا مما أنزل الله تعالى على - محمد صلى الله عليه وسلم – فأقرأه رجل سورة(براءة), فقال:(إن الله بريئ من المشركين ورسوله) **بالجر**, فقال الأعرابي:

او قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فانا ابرا منه, فبلغ عمر –رضي الله عنه – مقالة الأعرابي, فدعاه, فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله – صلى الله عليه وسلم -؟ فقال: يا أمير المؤمنين: إني قدمت المدينة, ولا علم لي بالقرآن, فسألت من يقرئني, فأقرئني هذه السورة(براءة) فقال: إن الله برئ من المشركين ورسوله, فقلت: أوقد برئ الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريئا من رسوله فأنا أبرأ منه فقال عمر – رضي الله عنه – ليس هكذا يا أعرابي وأنا والله أبرؤ ممن برئ الله رسوله منه، فأمر عمر أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة, وأمر ابا الأسود الدؤلي أن يضع النحو "[11].

وقيل إن ابنة لأبي الأسود قالت له: يا أبت ما أشدُّ الحرِّ- في يوم شديد الحر-, فقال لها: إذا كانت الصفعاء من فوقك, والرمضاء من تحتك, فقالت: إنما أردت أن الحر شديد, فقال لها: فقولي إذن ما أشدَّ الحرَّ.

فتخطئة كل من القارئ وابنة ابي الاسود كان جلبا للمعنى فالقواعد النحوية هي التي وضعت في أساسها لفهم النص اللغوي.

3- مراعاة ظاهرة التركيب واحكام الصناعة دون المعنى:

قد يأتي ظاهر التركيب موهما بإعراب معين قد تجيزه القواعد النحوية لكنه عند عرضه على المعنى المقصود لا يستقيم منه قوله تعالى(فأجمعوا أمركم وشركاءكم) فالمعنى الأول الذي يفهم من إعراب عطف(شركاءهم) على(أمركم) بالواو العاطفة لا يستقيم, لأن الأمر إلهي لا يتوجب خطابه على غير المسلمين وإنما المعنى الصحيح هو أن الواو على المعية أي أجمعوا أمركم مع شركائهم وهذا المعنى المناسب.

ومنه قوله تعالى:(فمن شرب منه فليس مني, ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده) فقوله(... إلا من اغترف غرفة بيده) يفهم أن الاستثناء منقطع من الجملة مستثناة من الأولى ويقتضي ان من اغترف غرفة بيده ليس منه وليس المعنى كذلك, لأن المعنى أن من شرب منه فليس منه إلا أن يكون قد اغترف غرفة بيده فإنه منه, وكذلك من لم يطعمه قط فإنه منه, لأن جملة(ومن لم يطعمه فإنه مني) جملة معطوفة على الأول, والمعنى مستقيم في(فمن شرب منه فليس مني إلا من اغترف غرفة بيده) فهو استثناء وترخيص من حكم عام.

وعلى هدا فالإعراب الصحيح ان الاستثناء من الجملة الاولى وليس الثانية, ولو اتبعنا ظاهر الإعراب بجعل الاستثناء(... ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده) لفسد المعنى ولفهم قصد الشارع على غير غرضه وخطابه.

فالتأويل في النحو العربي ليس ذلك المرض الذي يجب التخلص منه او جعله سببا في قعود العربية وعدم تطور الدرس اللغوي فيها, وإنما أداة مهمة في فهم النص اللغوي وغور معانيه الدقيقة التي تحفل بها الأساليب الرفيعة.

والتأويل في النحو العربي يعطي أبعادا أو دلالات إضافية اخرى في النص ويزيد من جمالية أسلوبه، ويصدق قول من قال(لولا الحذف والتقدير لفهمت النحو الحمير) وهو أداة أساسية في التحليل اللغوي وتفكيك مكوناته وتراكيبه بالتأويل والتقدير نقف على الكثير من المشكلات التي تكون قد استعصت على التحليل والتفسير ونصل إلى البنى العميقة في النص.

الهوامش:

1. طبقات النحويين واللغويين، ابو بكر محمد الزبيدي، تحقيق ابي الفضل إبراهيم، دار المعارف ، مصر.ص32
2. نزهة الألباء في طبقات الادباء، ابن الانباري ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى 1995،ص35
3. مجالس العلماء، ثعلب ابو العباس، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة دار المعارف 1960،ص20.
4. طبقات النحويين واللغويين، ص41
5. الكتاب: سيبويه أو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام هارون ط1 القاهرة 1977،38/1
6. الفهرست، ابن النديم ابو يعقوب محمد بن إسحاق، مطبعة الاستقامة،مصر،ص86
7. مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، 1950،ص76
8. الاقتراح في علم اصول النحو، السيوطي، دار المعارف، 1988،ص84

9. الخصائص ابن جني: ابو الفتح عثمان ابن جني الموصلي، تحقيق محمد علي النجارطبعة دار الكتب المصرية،.1952، 1/ 75
10. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية الحنبلي، مطبعة المنيرية، القاهرة،45/1
11. بدائع الفوائد، 45، 46/1